

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس الجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

جميع الحقوق محفوظة للوزارة

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

سورة الحاقة مكية

وهي إحدى وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحاقة ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾

(الحاقة) تأتي الحاق ، اسم فاعل من حق فلان الأمر بمعنى حققه وأوجبه وأثبتته . وإذا كان معنى (الحاقة) ما ذكرنا كان لها موصوف ومفعول محذوفان . والتقدير الساعة الحاقة لأمر الحساب ، ولما يتلو ذلك من الثواب والعقاب ، فتلك الساعة — وهي يوم القيامة — تحقق كل ذلك وتثبت به بحيث لا يعود يقع فيه ريب للمرتابين ، ولا تعلقة للكاذبين . ويقول الرجل لأصحابه إذا بلغهم خبر فلم يستيقنوه ، ”أنا أحق لكم هذا الخبر“ أى أعلمه لكم ، وأقف على حقيقته .

وكما أن [حق] الثلاثى يكون متعديا بمعنى حقق يكون لازما بمعنى وجب وثبت وتحقيق فى نفسه ، ومنه (حق كرامة ربك) و (حق عليهم كلمة العذاب) أى وجبت وثبتت ، ويجوز تفسير (الحاقة) فى الآية بذلك ، ويكون معناها الساعة الثابتة المتحققة الوقوع .

وقد أصبحت (الحاقة) اسما من أسماء يوم القيامة ، ولم يعد يلاحظ فيها موصوفها ، كما أن (القارعة) و (الواقعة) و (الطامة) و (الصاخة) كذلك ، فكل هذه الأسماء كانت أوصافا ، ثم غلب استعمالها أسماء بل أعلاما ليوم القيامة .

وقوله ﴿ما الحاقة ؟﴾ استفهام يقصد به تهويل تلك الساعة التى سميت الحاقة ، كأنها لغرابة أمرها ، وفظاعة هولها أصبحت النفس من دهشتها تبسأل عنها قائلة : ”ما هى تلك الحاقة ؟“ وهذا كما إذا فاجأ المرء مصاب فادح فإنه يلتفت إلى جلسيه قائلا : ما هذا ؟ مع أن المصاب يكون معلوما لها ، بل يكون أحيانا تحت مواقع أبصارهما .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ ﴿٢﴾

وكان الظاهر أن يقول "ما هي ؟" مكان (ما الحاقة ؟) لكنه عدل عنه إلى الاسم الظاهر لزيادة التهويل به فوق التهويل بالاستفهام . أما إعرابه : فالحاقة مبتدأ ، وقوله (ما الحاقة) ما استفهامية خبر مقدم والحاقة مبتدأ مؤخر ، والجملة منهما خبر للحاقة الأولى ، والحاقة الثانية بمنزلة الضمير والكناية عن الحاقة الأولى ، كأنه يقول "الحاقة ما هي ؟" كما يقال : "زيد ما زيد ؟" أى إن أمره عجيب ، ومثل الآية في العدول إلى الظاهر قول أم زرع في حديثها المشهور "أبو زرع وما أبو زرع ؟" "أم أبي زرع فـأ أم أبي زرع ؟" "ابن أبي زرع فـأ ابن أبي زرع ؟" وهكذا ، والمعنى أن أمر ذلك عجيب ، وشأنه مستغرب .

ثم عاد الوحي فاستفهم معجبا من أمر الحاقة على أسلوب أبلغ فقال : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ! ﴾ كأنه يقول : إنه لا أحد يدري أمرها ، أو يقدر أن يحيط وهمه بما هي عليه من الفخامة ، وجلالة الشأن ، وإذا كان الخطاب في (وما أدراك) لمطلق إنسان ، الشامل للمكذبين للقيامة - يكون فيه تعريض بالمكذب ، وأنه يكذب بما لا يعلمه ، ولا يقدر على اكتناه أمره . والاستفهام في هذا الأسلوب جار على عادة العرب في التخاطب ، وإلا فإن العلم الخبير سبحانه وتعالى لا يجهل حتى يستفهم .

قبل أن يأتي الوحي على وصف تلك الساعة وأخبارها ، وما يكون فيها لفريق الأبرار والفجار ذكر للخطابين موجزا من أخبار بعض الأمم الماضية الذين كذبوا بها فهلكوا ، ليكون ذلك زاجرا للمكذبين بها من مشركي العرب ، فقال : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ وكان الظاهر أن يقول مكان (بالقارعة) - : (بها) ، أى بالحاقة ؛ لأن الحديث عنها ، وتكذيب عاد وثمود إنما هو بها ، لكنه عدل عن ضميرها إلى اسمها الظاهر توصلا إلى نعتها بوصف آخر غير (الحاقة) وهو أنها (القارعة) التي تفرع القلوب بهجومها ، ومفاجأة أهوالها .

و [القرع] ضرب الشيء الصلب والنقر عليه بشيء مثله ، يقال : قرع الباب والناقوس ، وقرع رأسه بالعصا ، وقرع السهم الهدف ، وهكذا ، وإذا بغا الهول القلب اضطرب ووجب كأن قارعا قرعه ، على أن الساعة كما تفرع القلوب والنفوس بالإفزع ، تفرع الأرض والسموات بالدك والنسف والانصداع ، فهي القارعة بالمعنى الأعم الأشمل .

و (ثمود) و (عاد) من قبائل العرب البائدة ، وكل هذه القبائل عند العرب من نسل إرم ، فهم إرميون أى آراميون كما نسميهم اليوم . ويقولون "عاد إرم" و "ثمود إرم" تميزا لهم بهذا الوصف عن غيرهم ، أو كشفًا لهم ، فتعرف به نسبتهم .

وفي التوراة أن عادًا و ثمودًا تنسبان إلى آرام بن سام بن نوح عليه السلام ، فثمود جد قبيلة ثمود هو ابن "جاشر بن آرام" ويسميها مؤرخو العرب "كاشر بن إرم" ، وعاد جد قبيلة عاد هو ابن "عوص بن آرام" .

وكانت القبيلتان تسكنان اليمن ، ثم إن ملوكها الجيريين طردوا ثمود منها فسكنت الحجر من بلاد الحجاز في وادي القرى بطريق الحاج الشامي إلى مكة ، وتمتربها السكة الحجازية وهي مدائن صالح المشهورة ، ذات البيوت المنحوتة في الجبال نحتًا في غاية الإحكام وحسن الصنعة ، وكان اليهود يسكنونها قبل ظهور الإسلام .

وقد أرسل الله إلى قوم ثمود سكان هذه المدائن نبيا منهم ، وهو سيدنا صالح عليه السلام ، وكان صالح فيما يقال على طريقة سيدنا المسيح ، يمشى حافيا ، ولا يتخذ حذاء ، ويعيش متقشفا فلا يتبوأ مسكنا ولا بيتا ، ثم إن قومه كذبوه ، وعقروا ناقته ، وأغرقوا في الكفر والجحود حتى أهلكهم الله ، وقد قص تعالى علينا أخبارهم في غير موضع من كتابه ، وذكر في هذه السورة موجزا من طريقة هلاكهم .

أما أبناء عمهم (عاد) فكانوا يسكنون الأحقاف من بلاد اليمن ، والحقف في اللغة الرمل المستطيل المعوج ، وهذه الأحقاف كانت ممتدة في بلاد حضرموت بين عمان شرقا ، وبلاد اليمن غربا ، وساحل بحر العرب جنوبا . ويوجد في تلك البلاد على كثرة رمالها جبال وأودية من أخصب بلاد الله ، ذات مياه وأشجار وزروع ، لا سيما في نواحي حضرموت والشحر من بلاد اليمن ، وكانت "عاد إرم" تسكن في تلك الجهات ، وكانوا فيما يقال نحو ثلاث عشرة قبيلة فظنوا وبغوا ، فأرسل الله إليهم هودا عليه السلام ، فحذرهم وأنذرهم ، فكذبوه وتمردوا عليه ، ثم كان من أمر هلاكهم أخيرا ما قصه الله علينا في هذه السورة .

ويقول علماء الآثار اليوم ^(١) إن مؤرخي اليونان ذكروا في جملة قبائل اليمن حوالى ميلاد المسيح قبيلة يكتبونها بلغتهم هكذا (Adramitai) أى العادراميون ، ولا غرو أن يكون العادراميون هؤلاء هم الذين سماهم العرب "عاد إرم" أو "عاد آرام" .

(١) ملخص من كتاب (العرب قبل الإسلام)

قالوا : وأما قبيلة ثمود فذكرت في حملة البلاد التي غلبها "سرجون" ملك آشور سنة ٧١٥ قبل المسيح ، وكانت بجوار مكة في الجهة الجنوبية من مدائن صالح ، وذكر مؤرخو اليونان ثمود حوالى زمن المسيح وبعده وجعلوا منازلها المدائن المذكورة ، ويسمونهم ثموديني (Thamudeni) . ودخلت "مدائن صالح" في حوزة ملوك بطرا "أو البتراء" وهي وادى موسى" قبل المسيح وقد وجد على أطلال المدائن كتابات ونقوش تدل على هذا المعنى ، ودونك هذا المثال من تلك الكتابات بالحرف النبطى وتاريخه حوالى عهد المسيح :

"هذا القبر الذى بنته لكم بنت وائلة بنت حرم وكلبية ابتها لأنفسهن وذريتهن ، في شهر طيبة من السنة التاسعة للبرث ملك النبطيين ، محب شعبه ، فعسى ذو الشرى وعرشه [؟] واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا غيركم وابتها وذريتها ، ومن يخالف ما كتب عليه فليلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر [؟] غرامة مقدارها ألف درهم حارثى ، إلا من كان بيده إذن من يدكم أو كلبية ابتها بشأن هذا القبر ، والإذن المذكور يجب أن يكون صحيحا ، صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة اهـ "

واللغة المنقوشة على أطلال مدائن صالح آرامية مثل لغة "بطرا" النبطية ، وكان ثمود سكان هذه المدائن كانوا يستعملون لغة سادتهم النبطيين وكتابتهم أحيانا ، وإلا فإن لغة ثمود الأصلية هي لغة بلادهم "الين" التي هاجروا منها ، أعنى اللغة الحميرية ، وكتابتهم بالحرف المسند الحميرى لا النبطى ، وقد عثروا على فروع من القلم المسند في عدة أماكن من بلاد الحجاز ، أهمها ما وجد في "العلاء" جنوبى مدائن صالح ، أوائل الميلاد . من ذلك :

(١) كتابة سموها "لحيانية" مذكروا فيها أسماء ملوك لحيان الذين يظن أنهم بقايا قبيلة ثمود .

(٢) كتابة سموها "ثمودية" وهي تختلف عن "الليمانية" بعض الاختلاف .

(٣) كتابة سموها "صفوية" وهي التي وجدوها في جبل الصفى بحوران .

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥٠﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٥١﴾

[الطاغية] من الطغيان : الافراط ومجاورة الحد . وهي صفة لمحذوف . كأنه يقول :
أخذوا بأخذة من أخذات العذاب جاوزت كل حد في عنفها وشدتها .

وقد كانت تلك الأخذة صيحة من السماء : امتلخت^(١) قلوبهم ، وأهمدت نفوسهم ،
بدليل ما جاء في سورة هود (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) ويعنى
بالذين ظلموا قوم صالح عليه السلام . والكتاب لم يعين هذه الصيحة ، ولم يفصل أمرها بأكثر
من وصفها بالطغيان ومجاورة الحد كما قال في آيتنا التي نفسرها . وقد قال في سورة الشعراء
(فأخذهم العذاب) ، وفي سورة الفجر (فصب عليهم ربك سوط عذاب) ، وفي سورة الشمس
(فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) ، ومعنى (دمددم عليهم) أهلكهم ، ومعنى (سواها) سوى قبيلة
ثمود بالأرض ودمرها ، أو سوى بين آحادها في لحاق العذاب بهم ، فلم يفلت منهم أحد .

أما السبب الذى أخذ به قوم صالح هذه الأخذة فهو تكذيبهم لنبيهم ، ومخالفتهم أمر الله
فما امتحنهم به ، من أمر الناقة ؛ فقد أمرهم أن لا يمسوها بسوء ، ثم يكون لهم شرب ، أى يوم
يشربون فيه من المورد كفايتهم ، ولها هى يوم تشرب فيه وحدها ، على أن يملئوا في يومها كل
وعاء وإناء لهم من لبنها .

ثم إن جهلة القوم برموا بالناقة وشربها ، وحرمانهم الماء في يومها ، فانبعث أشقاهم فعقرها ؛
ولم يأخذ قومه على يده ويمنعوه من جرمة ، فنسب العقار إليهم كلهم ؛ لرضاهم به وسكوتهم عليه ،
فعصمهم العذاب ، وأخذوا بهذه الأخذة الطاغية التي جاوزت الحد المعتاد في القوة والاشداد ، كما
جاوزوا هم الحد في المخالفة والعناد .

هذا ذنب ثمود وعذابهم . (وأما) أبناء عمهم (عاد) — وهم الذين يسمون أيضا " عاد
إرم " و " إرم ذات العماد " ، والعماد الأبنية الرفيعة ، وسيأتى وصف أبنيتهم ، أو هو كناية عن
قوتهم ومنعتهم وعلو جانبهم ، وقلنا إن مساكنهم الأحقاف من بلاد حضرموت — فقد وصف الله
في غير ما موضع من كتابه مبلغ طغيانهم وبقورهم وتكذيبهم لنبيهم هود عليه السلام ، واستخفافهم
به ، وبالأوامر الإلهية التي كان يبلغهم إياها ، وهم الذين كانوا يقولون له : (وما نحن بتاركى
أهتنا عن قولك) مذ كان يقول لهم : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) .

(١) امتلخت) انتزعت .

وقد انضم إلى كفرهم هذا بالله مآثم ومناكر غاية في البشاعة : من ذلك أنهم كانوا يبنون قصورهم على قارعة الطريق وفؤهات المعابر ، وكانوا يتنافسون في بناء تلك القصور وتشيدها حتى يصبح القصر آية وعلامة على عظمة صاحبه ومبلغه من الغنى والثروة ، وتفوقه على أبناء عشيرته ، فكانت تلك القصور وسيلة للباهة والتفاخر وتأريث الفتن والعداوات ، ولم يكن لهم في تلك القصور عمل سوى العبث واللعب والإفساد في الأرض . فكان بعضهم يتخذ في أعلاها أبراجا للحمام ، ويضع الوقت سدى في إيطارته ، وإيذاء الجيران به . وكان آخرون يطلون من قصورهم على الغادين والرائحين ، من تجار وأكارين ، فيعبثون بهم ، ويدبون بالأذى إليهم . وكان بعضهم يرصد الذين يفدون على نبيهم هود للإيمان به ، وتلقى الهداية من قبله ، فيتناولونهم بأنواع السباب والشتائم ، ويحولون بينهم وبين ما يريدون من الإيمان بهود عليه السلام . وكل ما ذكرنا هو عبثهم الذي كان يوبخهم عليه سيدنا هود مذ يقول لهم : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟) ثم يقول : (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) أى تبنون المباني المتينة من دور وقصور وحصون وصهاريج للساء حاسبين أنكم تعيشون إلى الأبد ولا يدرككم الموت وأنتم في تلك القصور المشيدة ، وتتجون من عذاب الله على فظائعكم وآثامكم ؟؟ وأشد ما كان يوبخهم عليه نبيهم أنهم كانوا إذا غضبوا على أحد من الناس بادروا إلى تعذيبه ، والإيقاع به ، قتلا بالسيوف ، أو جلدا بالسياط ، من غير تفكير ولا تدبر في العواقب ، وقد لا يكون للسكين ذنب يستحق عليه كل هذا العقاب ، فكان نبيهم هود يقول لهم معذرا فظائعهم (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) .

هذا ما قصه الله علينا من خبر هذه الأمة العاتية . فلا بدع إذا أنزل بها شديد عقابه ، وأليم عذابه ، مذ قال تعالى واصفا ذلك في كتابه (وأما عاد فأهلكوا) الآية . و [الصرصر] وصف للريح يجمع بين شدة صوت هبوبها في الآذان ، وشدة لذع بردها على الأبدان ، فإن من معاني هذه المائدة [الصر] الصوت الشديد : يقال : " صرّ صرا وصريرا " ، والبرد الشديد : يقال " ريح صر " إذا كانت شديدة باردة . وقوله (عاتية) العتو في الرجال مجاوزة الحد في الكبر والبطش وقسوة القلب . والعتو في الرياح مجاوزة الحد في العصف والهبوب وقهر من أراد التوقى منها بحيلة ما ، فهي تدمر عليه مكنه ، أو تنتزعه منه بلا رحمة ، وفوق ذلك هي عقيم ، لا تلقح شجرا ، ولا تنقي ثمرا .

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾

هذه الريح التي أرسلها الله على عاد ((سخرها عليهم)) أي سلبها وجعلها مسخرة لأمره في إبادتهم ، والانتقام منهم مدة ((سبع ليل وثمانية أيام حُسوما)). و[الحسم] في اللغة يدور حول ثلاثة معان :

(١) القطع باستئصال . يقال "احسم العرق" أي انزعه من أصله، ثم اكوه لئلا يسيل دمه .
(٢) الشؤم الذي لا يكون معه خير . ومنه "أيام حُسوم" أي تحسم الخير والبركة عن أهلها .
وهو يرجع إلى المعنى الأول

(٣) الدؤوب في العمل والأخذ فيه من دون فتور ، وهو يرجع إلى المعنى الأول أيضا ؛
لأن الذي يريد حسم العرق مثلا يتابع العمل ويعيد الكى على العرق المرة بعد المرة حتى ينحسم .
وقد وصفت تلك الريح بكونها (حُسوما) وفسروها بكل هذه المعاني ؛ فهي قد استأصلت
القوم وأبادت خضراءهم ، وكانت شؤما عليهم مذ استأصلتهم ، وكانت في إلحاحها في عملها
وإبادتها دأبة متتابعة لم يعترها فتور ولا وني .

ولفظ [حسوم] إما مصدر بجلوس ؛ وهو راجع إلى الريح أو إلى الأيام والليالي ، ويكون
التقدير: بريح ذات حسوم أو أيام وليال ذوات حسوم . أو هو جمع حاسم بجلوس وشهود جمع
جالس وشاهد ، فيكون حينئذ من صفة الليالي والأيام .

ويقال : إن هذه الأيام هي المعروفة إلى اليوم بأيام العجوز : تأتي في أواخر فصل الشتاء
ويشتد فيها البرد : أربعة من آخر شباط "فبراير" ، وثلاثة من أول آذار "مارس" . سميت
بذلك — فيما زعموا — لأن عجوزا من قوم عاد المذكورين توارت من خوف الهلكة في سرب
فانزعجت الريح الصرصر في اليوم الثامن فأماتتها . وقيل إن اسمها "أيام العَجَز" أي أيام آخر
الشتاء ؛ فإن عجز الشيء مؤخره . ثم حرفوها وقالوا "أيام العجوز" قال صاحب التاج : والصحيح
أنها [عجوز] بالواو كما في دواوين اللغة قاطبة .

و((صَرْعَى)) مطروحين على الأرض . و((أَعْجَازُ النَخْلِ)) أصولها وجذوعها . و((خَاوِيَةٍ))
نخرة فارغة : تَأْكَلْ جوفها وبلى وتفتت ؛ فما أسرع أن سقطت على الأرض .

فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾

هذه الجنود النخرة الممددة هنا وهناك هي مثال طبق لقوم عاد ، مذ صرعتهم الريح الصرصر في أفنية دورهم ، وعراض مساكنهم ، مبعثرين مبددين . وإنك لو طفت معاهدهم ، وجست خلال دورهم ، بعد أن فعلت الريح بهم ما فعلت - (فهل) كنت (ترى لهم من باقية) أى بقية أفلتت من الهلاك ؟ أو المعنى هل كنت ترى لهم نفسا باقية لم يشملها الهلاك ؟ ؟

قوله : (وجاء فرعون) معطوف على قوله تعالى : (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) . بعد أن وصف الوحى موجزا من هلاك عاد وثمود ذكر طوائف من أمم قديمة أخرى كان من خبرها وتكذيبها مثل ما كان من خبر عاد وثمود ، فعُد منها (فرعون) ويعنى فرعون وقومه ، وقد اجترأ عن ذكرهم بذكره ، إذ كان رئيسهم ، وولى أمرهم ، كما اقتصر عليه أيضا فى قوله : (هل أتاك حديث الجنود . فرعون و ثمود) . ولو قال قائل : إن المراد بفرعون الفرعونيون أى المصريون القدماء المنسوبون إليه - ما كان مباحدا ، كتميم مثلا فإنه فى الأصل اسم بلجد القبيلة ، ثم غلب عليها كلها . وقوله : (ومن قبله) قبل بفتح القاف وسكون الباء ، أى وجاء أيضا من الأمم من كان قبل فرعون وسبقه فى الزمن . ولم يعين الكتاب لنا هذه الأمم السابقة ، وما علينا ألا نعلمهم ونُعَي بتعيينهم . وقد مثل لهم بعض المفسرين بقوم نوح وقوم نمرود .

وقرأ بعض القراء (ومن قبله) بكسر القاف وفتح الباء بمعنى جاء فرعون والذين هم عنده وجهته ، يعنى جنوده وأتباعه المقيمين حيث أقام ، والراجلين حيث رحل . يقال "أتانى من قبل فلان رسالة" أى من عنده أو من جهته . و"لى قبل فلان دين" أى عنده . ويشهد لهذه القراءة قراءة عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب (وجاء فرعون ومن معه) ، ولا يكون معه إلا جنوده وأتباعه ، وهو معنى (ومن قبله) . ويشهد لها أيضا قراءة أبى موسى الأشعرى (وجاء فرعون ومن تلقاه) و [تلقاء] بمعنى [لقاء] فى الأصل ثم توسع فيها فصارت بمعنى [عند] و [جهة] .

(والمؤتفكات) جمع المؤتفكة أى المنقلبة ، وموصوفها محذوف ، أى القرى المنقلبات أو الأراضى المنقلبات . يقال اتفتكت البلدة بأهلها إذا انقلبت ، ومنه الإفك ، بمعنى الكذب لأن الكاذب يقلب الحقيقة ، ويظهرها فى غير صورتها الصحيحة . والمراد بالمؤتفكات مدن قوم لوط التى انقلبت عليهم ، وصار عاليها سافلها ، بما كانوا يرتكبون من الفجور والمنكر . والذى جاء بالخاطئة أهل المؤتفكات لاهى ، لكن تجوزها عنهم اعتمادا على فهم السامع على حد قوله تعالى (واسأل القرية) أى أهلها .

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿١٠١﴾

ويقال إن البحيرة التي تسمى اليوم بحيرة لوط والبحر الميت — تغمر الأماكن التي كانت قائمة فيها قرى قوم لوط، وهي خمس: سدوم، وعموره، وأدمة، وصبويم، وبالع وتسمى صوغر. ولما أراد الله إهلاك هذه القرى أمطرت بهم النار والكبريت، وتغشتها سحب من الأبخرة المنبعثة من جوف الأرض، ثم تحللت تلك الأبخرة إلى ماء كريبه الطعم، استنقع في ذلك الغور، وتكونت منه تلك البحيرة.

X → [والخاطئة] صفة لمحذوف، أى بالفعلة الخاطئة، أو الأفعال الخاطئة، أى ذات الخطيئة والإثم والذنب: يقال: خطئ، إذا أثم وأذنب فهو خاطئ، وقال بعض أهل اللغة لا يكون ذلك إلا عن عمد وتصميم، بخلاف أخطأ فهو نخطئ، فإنه الذي يفعل الشر غير متعمد له، والخطأ من أخطأ، والخطيئة من خطئ.

خطئ. يخطئ. خاطئ.
أخطأ. يخطأ. محط.

وقوله «أخذة رابية» أى شديدة زائدة في شدتها: من ربا إذا زاد ونما وتضاعف عدده أو حجمه، فهذه الأخذة التي نزلت بقوم فرعون مذ أغرقوا في اليم، وبقوم لوط مذ قلبت بهم قراهم وتراكت عليها اللحم وحجارة الكبريت وسحب الأبخرة — كانت ولا ريب أخذة زاد فيها العذاب ونما، واشتد بها الكرب على الفريقين وطما.

ولا حاجة إلى ذكر ما جاء به قوم فرعون وقوم لوط من الخطايا والآثام، وعصيان موسى ولوط عليهما السلام، ووصف ما كان من أمرهم، والعذاب الذي نزل بهم، فهو على الإجمال معروف؛ وقد ذكر في التزييل أكثر من مرة، غير أنا نذكر موجزا من تاريخ حياة «لوط» حسبما ورد في الأسفار القديمة: قالوا: هو ابن حاران أخى إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد هاجر مع عمه إبراهيم من بلاد ما بين النهرين إلى أرض الميعاد «فلسطين»، وبعد رجوع إبراهيم من مصر كانت مواشيه ومواشى لوط قد ازدادت جدًا، وكثر الخصام بين رعائهما، فاقترح إبراهيم على لوط أن يفتقا منعًا للنزاع والخصام، وخير إبراهيم لوطا في الأرض التي يريدها، فاختار دائرة نهر الأردن بقرب سدوم وعمورة، ثم غزا «كدور لاومر» ملك عيلام هذه المدن، وأذل ملوكها. وأسر طائفة من سكانها، كان فيهم لوط عليه السلام، وأفلت من القوم من أخبر سيدنا إبراهيم بهذه النازلة، فأمرع بثلاثمائة وثمانية عشر من أهله وحشمه عدا حلفائه الآموريين وجد في إثر الغزاة حتى أدركهم بالقرب من بانياس في قضاء القنيطرة من ملحقات دمشق، فنازلهم

إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾

وشتت شملهم، ثم تبعهم إلى "صوبا" في محل قرية "المزة" على مقربة من دمشق كما حققه بعضهم وهناك استرد الأسلاب، وأخذ الأسرى ولوطا ابن أخيه، ثم كان ما كان من أمر القرى الخمس وتدمير الله لها، فانتقل لوط إلى جبال "موآب" فتوطنها، ثم كانت من بعده لنسله الموابيين والعمونيين.

قص الوحي علينا أخبار الأمم المكذبة المذكورة، وحلول العقوبة الإلهية بها، ليكون ذلك زاجرا للمكذبين من قريش، وقد قدم هذه الأخبار بين يدي ذكر يوم القيامة، وما يحدث فيه من الأحوال، بعد أن افتتح السورة بوصف يدل على هول ذلك اليوم، وعظم أمره، وكانت تلك الأخبار تذكرة على نسق واحد، لكنه لما انتهى الحديث إلى خبر أمة نوح عليه السلام وهلاكها بالطوفان خالف في الأسلوب، ولون الخطاب بلون آخر، وبدل أن يقول مثلا: إن قوم نوح كذبوا فأغرقوا بالطوفان—وجه الخطاب إلى مكذبي قريش الذين هم من سلالة الناجين من الفرق مع نوح، مذكرا لهم بنعمته على آبائهم. ويكون في إيراد الكلام على هذا الأسلوب قد جمع بين خبر الفجار المفرقين، وخبر الأبرار الناجين، كما قرن بين تحذير مكذبي قريش أن يصيبهم ما أصاب أولئك المفرقين، وبين الامتنان عليهم بحمل آبائهم في السفينة، فكان ذلك سببا لنجاتهم. وانتشارهم في الأرض، وبشهم ذرياتهم في جناباتها، وكان مكذبو قريش المخاطبون—من هذه الذريات، أفلا كان الواجب عليهم أن يدعوا العناد والتكذيب، ويشكروا الله الذي مهد لهم سبيل الوجود بهذا التدبير العجيب؟ وقد خالف في أسلوب الكلام على هذه الصورة لينقل بذلك إلى البعث وأحواله، ووصف يوم القيامة وأحواله.

ومعنى (طغى الماء) طار وارتفع وتجاوز حده المعروف وطاف على الأرض اليابسة فغمرها، وكان منه الطوفان الذي أباد الله به أهل ذلك الزمان.

وقوله (حملناكم) أى أنتم يا معشر قريش المخاطبين اليوم، وإنما جعل حمل أجدادهم حملا لهم؛ لأن أولئك الآباء كانوا جثومة لهؤلاء الأبناء، ففي حفظ الجثومة حفظ لقوتها النامية بل حفظ لما في طيها من الذراري الكامنة، وهذه الذراري العاقلة يجب عليها أن تشكر للذي حفظ أصلها، وصان جثومتها من الضياع والفناء، فكان ذلك سببا لوجودها وتمتعها بالحياة والنماء و(الجارية) السفينة.

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكُرَةً وَتَعِيَةً أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾

وقوله ((لنجعلها)) أى لنجعل السفينة ، وقصتها العجيبة ، أولنجعل تلك الفعلية ، وهى نجاة الأبرار ، وهلاك الفجار ، ((تذكرة)) عبرة وعظة تحملكم أيها المكذبون على التوبة والإنباء وترك التكذيب . ((وتعيها أذن واعية)) أى ولأجل أن تحفظ تلك التذكرة وما تتضمنه من الموعظة والعبرة — أذن حافظة لها . والمراد بحفظها تعقلها وتدبرها والانتفاع بها فى اجتناب الفسوق والعصيان ، واتباع سبيل أهل التقى والإيمان . وقد أراد بالأذن صاحبها لا الجارحة نفسها ، ونكرها وجعلها واحدة للإشارة إلى أن الأذان التى تسمى الحكم والمواعظ وعى تدبر وانتفاع قليلة بالنسبة إلى التى لا تسمى ولا تتدبر . على أن فى تنكيرها المفيد لتقليلها إيذاها بتعظيم شأن تلك الأذان القليلة وتفخيم أمرها ، وأنها على قلبها هى الكثيرة الطائلة والقوة العاملة ، على حد قول القائل :

يا خالدا يا خالدا ألفا وتدعى واحدا

هذا هو وصف يوم القيامة الموعود به ، والمرموز إليه من أول السورة بقوله تعالى (الحاقة ما الحاقة) ، والذي كذبت به تلك الأمم ، فأهلكها الله جزاء تكذيبها ، وحذر قريشا أن تسلك مسلكها فى التكذيب ، فيصيبها ما أصابها .

[والنفخ فى الصور] فى لسان الشرع قد يكون تمثيلا وتصويرا لبعث الأموات وانبعاثهم من أرامسهم بسرعة تحكى سرعة المجتمعين وقد هُتِفَ بهم من بوق عظيم ، وهذه (النفخة الواحدة) هى النفخة الثانية أو الدعوة الثانية التى يكون من أثرها صق الخلائق ونجود حياتها ، وخراب الكائنات ووقوف حركاتها^(١) ، وإلا فإنه يسبقها نفخة أولى أو دعوة أولى يكون من أثرها زعم الخلائق واضطرابهم ، واختلاط حابلهم بنابلهم . ونحن نؤمن بذلك كله حسبا ورد

(١) روى عن ابن عباس أن المراد بهذه النفخة الأولى التى يكون عندها خراب العالم ، وعن ابن المسيب ومقاتل : أنها النفخة الآخرة . وقد اقتصر ابن جرير على الأول ، ورجحه الفخر الرازى والآلوسى : قال الآلوسى : ” والأول أولى ، لأنه المناسب لما بعد ، وإن كانت الواو لا تدل على الترتيب ، لكن مخالفة الظاهر من غير داع مما لا حاجة إليه ” وقال الفخر الرازى : ” فإن قيل : لم قال بعد ذلك : يومئذ تعرضون — والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية — قلنا : جعل اليوم اسما للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب ، فلذلك قال : يومئذ تعرضون ، كما تقول : جئته عام كذا ، وإنما كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته ” . وقد جرى المؤلف فى كلامه على اعتبار النفخات ثلاثا ، وسأيق الكلام فيه . المصحح .

وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾
وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾

في الشرح . أما التعمق والتطلع لمعرفة ما وراءه فهذا ما لم نكلفه رحمة بنا ، وإن البحث فيه مضلة ، والسؤال عن كنهه مخرفة .

((وحملت الأرض والجبال)) أى رفعتا وسيرتنا ، كما قال تعالى في سورة التكوين : (وإذا الجبال سيرت) . والثنية في قوله (دككا) باعتبار أن (الأرض) و (الجبال) مجموعتان متميزتان مجموعة الأراضي المنبسطة التي هي السهول ، ومجموعة الأراضي المرتفعة التي هي الجبال والخزون . فقوله (دككا) أى هاتان المجموعتان ، سهولا وحزونا هدتا وسويتا على تسطيح واحد .

و [الدك] والدق متقاربان ، غير أن الدك أبلغ ، وهو أن تأتى إلى حائط أو كومة مرتفعة مختلطة بحجر ومدر وتراب مثلا فتضربها بعضها ببعض ، وترصها رصا منكرا بحيث يتكون منها بقعة ممهدة السطح : لا تضاريس فيها ولا اعوجاج ، ولا ارتفاع ولا انخفاض . وأحسب أن الباعة والتجار كانوا يفعلون ذلك من التسوية والرص والدك في البقعة التي يفرشون عليها بضائعهم في جنبات الطريق ، يعرضونها تحت أنظار المارة والمشتريين ، وكانوا يسمونها دكانا ، ثم شاعت هذه الكلمة حتى صارت تطلق على المكان الذي يبيع فيه التاجر أشياءه ولو لم يكن للدك فيه أثر .

وقوله ((دكة واحدة)) أى أصبحت الأرض والجبال بعد دكهما كتلة واحدة لا ميزة فيها لأرض على جبل ، ولا لجبل على أرض ، أما هذان : الرفع والدك اللذان وصفناهما فبأية قوة كانا ؟ لم يذكر الله في كتابه إلا أنهما حصلا ، وبديهي أن ذلك يكون بقدرة الله مباشرة من غير سبب ظاهر ، أو بواسطة سبب أو ناموس ، الله أعلم بما يكون من ذلك .

وقوله ((فيومئذ وقعت الواقعة)) أى ويوم أن يقع ما ذكر من النفخ والحمل والدك تكون قد وقعت الواقعة ، وحقت الحاقة ، وقامت القيامة التي كنتم تكذبون بها أيها المكذبون .

ثم ذكر الوحي بقية ما يقع في ذلك اليوم من تخريب العالم العلوى بعد أن ذكر تخريب العالم السفلى فقال : ((وانشقت السماء فهى يومئذ واهية)) . وانشاقها كناية عن انصداعها ، وتبدل أوضاعها وذلك بأن يسلب الله منها ذلك الناموس الأعظم الذى كان يمسكها ، ويربط بين أجزائها ، فلا يبقى جزء منها مستقرا في مكانه ، ولا كوكب من كواكبها على المعهود من حركته ودورانه ، وهذا معنى (واهية) : بالية متداعية لا تماسك فيها .

وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝ (١٧)

وإذا كانت أرضنا على صغرها وحقارة أمرها بالنسبة إلى العالم العلوى — قد خلق الله فيها أنواعا من المخلوقات ، وصنفا من الأحياء التى أرقاها الإنسان — أفيدع سبحانه تلك السموات العلى مجردة عن خلائق يذروهم فيها ، يصلون له ، ويمجدون اسمه ؟ كلا ، وقد ورد الشرع بتسمية هذه الخلائق السماوية ” ملائكة “ .

فكيف تكون حال هذه الملائكة فى ذلك اليوم : يوم القيامة وقد انشقت السماء التى تقلهم ، وتقطعت أوصال الأجرام التى تضمهم ؟ ؟ قال تعالى : (والملك على أرجائها) .

وقوله (والملك) أى جماعة الملائكة ، قال فيه للاستغراق . وضمير : (أرجائها) يرجع إلى السماء التى قد تصدعت وتشققت . والمعنى أنه إذا لم تعد السماء بعد وهبها وانشقاقها صالحة لأن تكون مثابة وأمنا لأولئك الملائكة — انتشروا هنا وهناك ، وانضوا إلى أرجاء السماء أى أقطارها وجوانبها . وخراب المكان وتزعزع أركانه لا يستلزم ألا تبقى له أرجاء ، فإن [الرجا] الناحية والجانب ، وهو لازم للمكان من حيث هو مكان .

لا تكاد نفس السامع تصل إلى هذه النقطة من وصف خراب العالم ، وانتكاث فتله ، وتعاضم هوله ، حتى يتمثل لعينه مبلغ السلطان الإلهى ، وعظمة ذى الجبروت الأزلى ، فيشهد إذ ذاك أنه الأول والآخر ، والباطن والظاهر ، وأن جميع ما تتابع على مسرح الوجود من هذه الخلائق لم تكن سوى خيال ، أو ظلال تقلصت لثر ظلال ، وإلى هذا يشير تعالى فى قوله (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) .

وضمير (فوقهم) يرجع إلى الملك الذى قلنا إنه إن كان مفردا فى لفظه فهو جمع فى معناه . وهل المراد من كلمة [فوق] العلو والارتفاع ، أى أن ثمانية يحملون عرش الرب تعالى فى مكان فوق مكان الملائكة الذين على أرجاء السماء الواهية ؟ أم معنى (فوقهم) زيادة عليهم : كما تقول لآخر وقد أعطيته مئة درهم : ” لك عندى فوقها مئة أخرى “ ؟ وقد تقول ” لك عندى وراءها مئة أخرى “ ، وكلاهما بمعنى غيرها وزيادة عليها ، وعلى هذا يكون معنى الآية : يحمل عرش الرب يومئذ ثمانية هم غير الملائكة الذين على الأرجاء وزيادة عليهم ^(١) .

(١) لا وجه لهذا القول فيما نرى ؛ فإن إضافة عدد معلوم إلى عدد مجهول يبقى معه المجموع مجهولا ، وحينئذ يخلو

ذكر عدد الثمانية عن النائدة . المصحح .

أو ضمير (فوقهم) يرجع إلى الثمانية الذين يحملون العرش ، وهو متأخر في اللفظ لكنه متقدم في الرتبة ، ويكون المعنى حينئذ : ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية فوقهم ؛ فهم يحملونه فوق رؤوسهم أو على ظهورهم ، وليس معلقا في أيديهم مثلا .

والمراد من الثمانية مسكوت عنه ؛ فهم ثمانية ملائكة ، أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية قوات إلهية أخرى تحمل عرش الرب فوق رؤوس ملائكة الأرجاء ، أو تحمله زيادة عليهم ، بحيث يكون الجميع مشتركين في الحمل — كل ذلك يحتمله لفظ الآية . فلا يحسن القطع بشيء منه .

أما [العرش] في اللغة العربية فله معان غير السرير الذي تجلس عليه الملوك : منها العز والملك والسلطان ، ومنه قولهم "فلان ثل عرشه" يريدون زال ملكه ، وذهب سلطانه . وقال الشاعر : "تداركتما عيسا وقد ثل عرشها" ، أى ذهب عزها ، وضعف أمرها ، كما يقولون في عكس ذلك "فلان توطد عرشه" ، أى استقر ملكه في البلاد ، ورسخ سلطانه على العباد .

وحمل عرش الرب في الآية قد يكون تمثيلا لكل عزته سبحانه ، وانفراده بالجلالة والعزة والملك في ذلك اليوم ، وأن تأثير هيئته سبحانه وتعالى في القلوب في ذلك اليوم يحكى تأثير ملوك الدنيا — وهم على عروشهم التي تحف بها جلة وزرائهم وكبار قوادهم — في قلوب رعييتهم المستعبدين لهم . وأين هذا من ذلك ، والله المثل الأعلى ، وإنما هو تنزل لأفهام المخاطبين ، وإفراغ للغانى الغيبية في قوالب ما ألفوه من تراكيب لغتهم العربية ، واصطلحوا عليه من أساليب التخاطب بينهم فيها ، وإلا فإن خالق الكون تقدست أسمائه ليس جسما يحمل على العروش ، ولا مخلوقا تزدهيه الزخارف والقشور .

وكل ما ذكر في هذه الآية من أمر تخريب الكائنات يوم القيامة ، ووصف أهواله ، وأحوال الملائكة فيه ، وما ينسب إلى الذات المقدسة الإلهية في ذلك اليوم من الأوصاف والأطوار — تؤمن بما ورد منه في القرآن ، وعلى لسان نبينا عليه الصلاة والسلام ، بعد التحقق من صحته ، من دون زيادة عليه ، ولا تفنن في إيراده ، حسبا دل ظاهره ، ونكل أمر كنهه وحقيقته إلى قائله ومترله سبحانه ، ونجتهد في أن نربى أنفسنا التربية الدينية التي يرمى إليها الوحي السماوى والوعظ الإلهي ، فنشعر قلوبنا بالإيمان والتقوى ، ونتمسك في حب الخير والفضيلة وتجنب الشر والرذيلة بالسبب الأقوى ، مراقبين في جميع أحوالنا جلال الله وعظمته ، محاذرين عقوبته وسطوته ، في يوم تعرض فيه الخلائق ذلك العرض العظيم ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) .

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

(يومئذ) أى فى ذلك اليوم الذى سبق وصفه . وإنما أعاد ذكر كلمة (يومئذ) المرة بعد المرة خلال سرد أحوال ذلك اليوم — زيادة لإحضار له فى أذهان المخاطبين ، وتصويرا لهوله فى نفوسهم حتى كأنه مائل أمام أعينهم .

(تعرضون) أى على ربكم أيها البشر للحساب ، وتوفية كل عامل جزاءه من خير وشر . ومن جملة البشر المخاطبين بهذا الخطاب أولئك المعاندون من مشركى مكة الذين ينكرون الرسالة ، ويكذبون بيوم الدين .

وهذه الآية كما قلنا لبيان الحساب والشروع فى أعماله بعد أن استوفت الآيات السابقة ذكر قيام الساعة ، وخراب العالم . وظاهر السياق أن كلا الأمرين — خراب الكون وعرض الخلائق للحساب — يقعان فى يوم واحد ، لكن هناك ما يدل على أن العرض للحساب ومباشرة أعماله يكون وقته بعد الوقت الذى يحصل فيه خراب الكون بالنفخة الثانية ، فهما وقتان أو يومان ، فالنفخات ثلاث : (١) نفخة الفزع الأكبر ، وقد أشير إليها فى آية النمل وهى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض)

(٢) نفخة الصعق ، وهى التى يكون بها موت الخلائق وخراب الكون ، والوقت خلال هاتين النفختين من يوم القيامة ، وقد تكفلت الآيات السابقة ببيان ما يحصل فى هذا الوقت بضرب من الإيجاز اعتمادا على آيات أخرى أتت على وصفه بأوفى بيان . (٣) نفخة البعث والنشور ، وقوله تعالى هنا (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) هو بيان لذلك وشروع فى وصف ما يقع بعد تلك النفخة الثالثة من العرض والحساب ^(١) .

(١) ما ذهب إليه المؤلف : من عد النفخات ثلاثا — هو اختيار ابن العربى ، ونقل الآلوسى عن القاضى عياض أنها أربع ، واختار بعضهم أنها اثنتان ، ثم اختلف هؤلاء فى نفخة الفزع : الأولى هى أم الثانية ؟

وقول : إنه لم يتعرض لعد النفخات فى الكتاب الكريم إلا قوله تعالى (٦٨ : الزمر) : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) ، وهو قاطع فى وقوع النفخ مرتين : مرة واحدة للصعق ، ومرة واحدة أخرى للبعث . وأمور الآخرة مما لا يثبت بغير دليل قاطع ، فلا وجه للقول بنفخة ثالثة هى نفخة الفزع . وقوله تعالى (٨٧ : النمل) : (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) — ليس المراد به نفخة ثالثة ولا إحدى النفختين السابقتين ، بل المراد به كل منهما ، فإن النفخة الأولى تفزع الناس وتصعقهم ، والنفخة الثانية يقوم الناس بها من قبورهم مذعورين ، فالفزع واقع فى النفختين ، ولذلك عبر فى آية الفزع بالمضارع الذى يدل على تكرار الوقوع ، فهو يقول : " حين ينفخ فى الصور يفزع الناس " . وإنما قال فزع بصيغة الماضى للإشارة إلى تحقق الفزع كلما حصل نفخ فى الصور . والله أعلم . اهـ : المصحح .

وعلى هذا فقولہ تعالیٰ هنا (فأما من أوتى كتابه يمينه) معناه أما من كان من فريق أهل السعادة وقولہ فی الآية الآتية ((وأما من أوتى كتابه شماله)) معناه وأما من كان من فريق أهل الشقاوة .
ومن قبيل إعطاء الكتاب بالشمال الدال على الشقاوة والخسران — إعطاء الكتاب من وراء الظهر في آية ((وأما من أوتى كتابه وراء ظهره)) وللظهر استعمال مجازية جرى عليها التخاطب بين أهل اللسان كما قلنا في اليمين والشمال : من ذلك قولهم ” لا تجعل حاجتي منك بظهر “ أى لا تنسها . وقولہ تعالیٰ ((فنبذوه وراء ظهورهم)) أى أهملوا الميثاق ولم يفوا به .

ولا يخفى أن الوحي إنما هو خطاب الله للعرب مباشرة . ولا يصح أن يسمى خطاباً لهم إلا إذا كان وارداً على أسلوبهم ، ومناحى كلامهم ، وإلا فلهم أن يقولوا له صلى الله عليه وسلم ما فهمنا ما تقول ، ولا ما تدعونا إليه ، ثم وجدوا من ذلك سبيلاً إلى الطعن فيه وفي رسالته ، ولم ينقل إلينا أنهم طعنوا في القرآن من جهة عدم فهمه ، وغموض أساليبه ، فدل هذا على ما قلنا . ونقل الاصمعي عن العرب أنهم يقولون : ” فلان عندنا باليمين “ أى بالمنزلة الحسنة ، و ” فلان عندنا بالشمال “ إذا خست منزلته . وقال الشاعر :

أينني : أفي يميني يديك جعلتني فأفرح أم صيرتني بشمالك ؟

وسئل نفطويه عن قول جرير :

واني لعف الفقر مشترك الغنى سريع — إذالم أرض داري — احتمالاً
وباسط خير فيكو يمينه وقابض شر عنكو بشمالها

فقال : إن العرب تنسب كل خير لليمين وكل شر إلى الشمال ثم استشهد على ذلك بهذه الآية (فأما من أوتى الخ) .

وقول جرير [احمالياً] يريد به سفره وتنقله إلى دار أخرى يرضاها ، وهو فاعل لقوله [سريع] .

أما أن الإنسان يأتي يوم القيامة وأعماله محصاة عليه في كتاب لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة بحيث يضطر إلى الاعتراف بها — فهذا ما لا ريب فيه . وهو من عقائد الإسلام ، لكنا لا نكلف معرفة ما إذا كان الكتاب على مثال اللوح أو الورق أو الرق أو غير ذلك ، وما إذا كانت الكتابة بمداد وقلم أو بأداة أخرى ، وما إذا كان الخط بنقوش وحروف ، أو بتجلى الأعمال للعاملين ، وظهورها لهم ظهوراً بيناً كأنها مثبتة في ضمائرهم ، ومنقوشة على ألواح نفوسهم : بحيث لا يقدر على إنكارها ، والتملص من تبعثها ، وهو المعنى الذي فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى

فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ أَمْ كِتَابِيَّةٌ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٌ ﴿٢٠﴾
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾

(اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) - كل ذلك لا يكلفه المسلم، وإنما يكلف اعتقاد صدق الخبر إجمالا، ثم تفويض أمر تفصيله إلى الله تعالى .

وقوله (هؤم) اسم فعل أمر بمعنى خذوا خطابا للجمع، وتقول لمفرد المذكر [هأء] بفتح الهمة، ولثؤنة [هأء] بكسرها، ولثنى [هاؤما] وللنوسة [هاؤن] والهأء في (كتابيه) و(حسابيه) و(ماليه) و(سلطانيه) هأء السكت، فيرتاح القارئ في انقطاع نفسه عندها . ولا كذلك إذا وقف على ياء المتكلم مفتوحة، لا سيما والآيات مراعى فيها الازدواج مع كلمات (راضيه) و(عاليه) و(خاله) التي هأتها هأت تأنيث لا هأت سكت .

وكان حق هأء السكت أن تحذف من الآيات حين الوصل لكنهم يؤثرون النطق بها فيه أيضا، لكونها ثابتة كتابة في المصحف الإمام .

ومعنى (ظننت) هنا علمت وتيقنت، إذ لا يكفى من المؤمن بالله أن يظن ملاقاته للحساب ظنا، وإنما يجب عليه أن يعتقد اعتقادا، ولعل النكتة في العدول عن التعبير بالعلم إلى التعبير بالظن، هي إفادة أن مجرد الظن بيوم الحساب كافٍ في حمل العبد على الإيمان والطاعة، فبالك إذا كان يعلمه علما . ومن الظن بمعنى العلم قوله تعالى (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) .

وقد يقال : كيف تكون [العيشة راضية] ؟ وكيف يصح أن يتصور وقوع الرضا منها ؟ وأجيب بأن (راضية) بمعنى مرضية وأنه اسم مفعول بصيغة اسم الفاعل، وقالوا إن أكثر من يستعمل ذلك من أحياء العرب سكان الحجاز فيقولون "ماء دافق وسركاتم" أى مدفوق ومكتوم وقيل هو من باب قولهم "لابن وتامر" يعنى أن صيغته هذه صيغة نسبة من دون إلحاق يائها، فعنى "لابن" ذولبن و"تامر" ذو تمر و"دارع" ذو درع و"نابل" ذو نبل . وهذا بدل أن تقول لبنى وتمرى ودرعى ونبل . و(راضية) بمعنى ذات رضا أى أن الرضا واقع عليها لا منها .

والحقيقون على أن [الراضية] هى العيشة نفسها، وأن نسبة الرضا إليها مجاز معهود مثله في كلام العرب من حيث يقصد به المبالغة في رضا صاحبها وأن الرضا تمكن من نفسه حتى انتقل أثره إلى عيشته نفسها فأصبحت راضية أيضا .

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٣﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٤﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ
فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٥﴾

و (جنة عالية) أى مرتفعة ارتفاعا حسيا ، فيكون ذلك أطيب لها وأكرم : أو المراد بعلوها علو شأنها ، وارتفاع قدرها ، وتزهها عن النقص والسوء ، أو عن المشابهة والنظير .
وقوله (قطوفها دانية) أى لا حائل يحول بين ثمار تلك الجنة ويدي جانبا كارتفاع وشوك مثلا ، وإنما هى مهدلة قريبة من متناول الأيدي . و [القطوف] جمع قطف بكسر القاف : الثمر الذى نضج وحن زمن قطفه ، وقيل هو الثمر ساعة قطف .

والقارئ يفهم من سياق قوله (كلوا واشربوا الخ) أن قائلا يقول لهم ذلك يمتن به عليهم ، ويذكرهم بحسن صنيع الله بهم ، أو أنهم أنفسهم يقول بعضهم لبعض ذلك تلهذا وتباهيا . ولا يخفى أن من فى قوله (فأما من أوتى) لفظه واحد لكن المراد به جماعة الناجين ذوى العيشة الراضية .

على أنه ليس المراد بـ (كلوا واشربوا) أمر أهل الجنة بالأكل والشرب فقط ، وإنما هو أسلوب بليغ يقصد به الإباحة للأمور أن يمرح فى النعيم ويتمتع بما فيه ، ويتناول كل ما تشتهيه نفسه من دون معارض ، ألا ترى أنك تعطى ابنك المطيع لك مالا وقصورا ودورا وحدائق ثم تقول له " اذهب يا بنى فكل واشرب وكن قير العين بما أعطيتك جزاء برك بى ، وطاعتك لى " وأنت لا تريد بأمره بالأكل والشرب إلا لإطلاق يده ، وتذكيره بالنعمة ، وطلب دوام شكره عليها ، ويؤيد ذلك قوله بعده (بما أسلفتم فى الأيام الخالية) أى تمتعوا بما أعطيتم بسبب ما كان منكم فى أيام حياتكم الماضية فى الدنيا . فباء (بما) متعلقة (بكلوا واشربوا) والمعنى تمتعوا وتلذذوا بالنعمة الإلهية التى من أجلها وأعظمها القرب منه تعالى ، ورؤية وجهه الكريم ، وإلا فإن مجرد الأكل والشرب لا يرضى بهما الكريم ثوابا لمن قام بما أمره به ، واجتنب ما نهاه عنه .
ولعمري إن الأكل والشرب فى الجنة من أقل ما يحتفل به فى مكافأة أهلها ، وإثابتهم على إيمانهم وطاعاتهم وحسن أعمالهم ، وإذا لم ينتظر العاملون من دخول الجنة إلا أن يأكلوا ويشربوا فما أخس جنتهم !! وما أخسر صفقتهم !! فعلى المؤمن المسمى أن ينتبه لما قلنا ، وينسج على منواله فى فهم ماوردت به النصوص من هذا القبيل ، وتفسيره تفسيرا يلتمح مع ما تقر فى الشرع وأيدته

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةً ﴿٢٥﴾
وَلَمْ آدُرْ مَا حِسَابِيَّةً ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿٢٨﴾

علوم الحقيقة ، وصرح به كبار علماء الإسلام كالغزالي : من أن المؤمن في الجنة تتقلب فيه الروحانية على الجسمانية ، والنورانية على الظلمانية ، ويكون أكبر حظوظه وقتئذ التمتع بمعاني الأودية ، والتلذذ بجملها ، والاستغراق في سُبُحات الذاتية ، والتخشع لجلالها ، وإلا فكيف يتمكن من الطيران ، ويدنوله البعيد ، ويختصر له الزمان ، ويفعل ما يريد . آمنا بالله ، وتقدس أسماء الله . وسأتى لهذا البحث زيادة تفصيل في الكلام على الآيات التي تصف نعيم الجنة وأسباب اللذوى فيها من سورة "هل أتى" .

ثم انتقل إلى بيان ما يكون من نصيب الجاحد المكذب بعد حسابه وعرضه على ربه . وشأنه على العكس من شأن المؤمن ؛ فهو ممن يؤتى كتابه بشماله ، أى يكون من أهل الشقاء والحسران . وما قلناه في تفسير (أوتى كتابه بيمينه) يقال في تفسير (أوتى كتابه بشماله) وهذا المكذب لا يلبث إذا علم أنه من فريق الأشقياء أن يحزن ويحسر ويقول (يا ليتنى لم أوت كتابه ، ولم أدر ما حسابيه) كأنه يتنى ألا يكون من فريق الأشقياء ، أو يتنى ألا يكون خالق ولا حاسب ، ولا أوتى كتابا ، ولا درى حسابا . على حد قوله في آية أخرى (يا ليتنى كنت ترابا) .

والضمير في (يا ليتنى) يرجع إلى الموتة التي ماتها في الدنيا ؛ فهو يسخط عليها لكونها لم تكن قاضية عليه إلى الأبد فلا يحيا بعدها في جهنم هذه الحياة المرة ، التي يموت فيها كل يوم ألف مرة . ويحتمل أن يرجع الضمير إلى الحالة السيئة التي أصبح فيها بعد البعث والحساب ، فهو يتنى لو أن ما هو فيه من الشقاء والآلام يقضى عليه فيرتاح : يعنى أنه يتنى الموت في ذلك الوقت مع أن الموت كان أكره شيء عليه في الحياة الدنيا .

ثم يتذكر ذلك المعذب من أمر دنياه ورغده فيها ما يزيده حسرة وكآبة فيقول : (ما أغنى عني ماليه) ، فهو ينفى أن يكون ماله قد أغنى عنه شيئا ، أو يستفهم استفهاما ، والقصد منهما كليهما إظهار التأسف واللوعة ، وأن كنوزه التي جمعها في دار الدنيا ولم يحمق الله فيها لم تدفع عنه من أمر الله شيئا .

هَلَكَ عَنِ سُلْطَانِيَّةٍ ۞ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞

(هَلَكَ عَنِ سُلْطَانِيَّةٍ) السلطان مصدر بمعنى السلطة ونفوذ الأمر كالغفران والرحمان .
ومعنى (هَلَكَ عَنِ) غاب عني وزال عني . يقول إن ملكه وتسلطه الذي كان في دار الدنيا ضل عنه
وذهب فهو يتحسر ويتحزن ؛ لأنه شغل بملكه وسعة سلطانه عن طاعة ربه ، والعمل لآخرته .

وكان قتادة ينكر أن يكون تفسير الآية ما ذكره ويقول : ” أما والله ما كل من دخل النار
كان أمير قرية ينجبها “ يريد أن قوله تعالى (هَلَكَ عَنِ سُلْطَانِيَّةٍ) هو من مقول المكذبين سواء
أكانوا سلاطين أم غير سلاطين . وغير السلاطين من سائر الناس لا يمكن أن يقولوا (هَلَكَ عَنِ
سُلْطَانِيَّةٍ) بمعنى الملك والتسلط على الرعية ، وإنما السلطان هنا القدرة والطاقة أو المحجة والبينة ،
ولا جرم أن كل واحد من فريق أهل الشقاء يقول هذا القول ويتحسر لبطلان حجته التي كان
يحتج بها في الدنيا وعدم بقعها في درء العذاب عنه في ذلك اليوم .

وقد يقال : قلما يوجد في الدنيا من لم يكن له شيء من السلطة على غيره ولو على زوجته
وولده كما قال صلى الله عليه وسلم ” كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته “ ؛ فالمعذب في الآخرة
يتذكر أنه كان ذا سلطة يمكنه أن يستعملها في الخير والطاعة ورضاء الله عز وجل ، لكنه بالعكس
استعملها في الشر والفساد ؛ فهو يحزن ويتحسر لذلك .

يحكى أن عضد الدولة بن بويه نظم شعرا جاء فيه قوله في صفة نفسه :

عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر

ثم أصيب بعد بشيء من الخجل والوسواس وفساد المزاج ؛ فكان لا ينطق لسانه إلا بقوله
تعالى : ” ما أغنى عني ماليه . هَلَكَ عَنِ سُلْطَانِيَّةٍ “ وجعل يرددّها إلى أن مات سنة ٣٧٢ هـ .

وكما يقال لفريق السعداء أصحاب العيشة الراضية من الكلام ما تطيب به أنفسهم ، وتهنأ معه
معيشتهم مثل (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) — يقال لفريق أهل الشقاء
من كلم التحقير والتعير ما يزيد به شقاؤهم ، ويعظم معه بلاؤهم : من ذلك أن يقول قائل
على مسمع من أحدهم : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ) أى ضعوا في يديه وزجليه الغل ، والغل ما يكبل به
الأسير من القيود والسلاسل .

ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلْوُهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾

و (النجيم) أشد أما كن النار تأججا . و (صلوه) بفتح الصاد من التصلية وهي حرق الشيء على النار : أى اجعلوه في النجم يصلها : أى يحترق بها ، ويقاسى حرها . و [السلسلة] هنا هي الغل والمراد من كونها سبعين ذراعا أنها طويلة جدا . وعدد [السبعين] يستعمل في كلام العرب عند إرادة الكثرة ، وعليه قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) . وقوله (فاسلكوه) أى فادخلوه بين ثناياها وأطوائها . وإنما قال ذلك لأن السلسلة لطولها والتواء بعض أطرافها على بعض تكون كأنها وعاء يدخل فيه ذلك المعذب . وسلك الشيء في الشيء أدخله فيه كما تدخل اليد في الجيب والخيط في خرم الإبرة .

وقدم (النجم) على (صلوه) و (في سلسلة الخ) على (فاسلكوه) لمراعاة الفواصل ، أو لإرادة الحصر : كأن المعنى إنكم أيها المأمورون بعذاب ذلك الجاحد لا يسمح لكم أن توردوه من طبقات النار إلا أشدها حرا ، وأقواها اشتعالا ، ولا أن تعذبوه من آلات العذاب إلا بأعظمها هولاً ، وأبينها طولاً .

قالوا : و (ثم) في الآية ليست لإفادة الترتيب في الزمان ، وإنما هي لإفادة التفاوت في المرتبة فيستفاد منها أن المتأخر في الذكر أهم وأكمل في نوعه مما قبله .

ولنا أن نقول إن سلكه في السلسلة هو نفس تغليله في الغل ، فما القصد من التكرير ؟ وقد يجاب بأنهم أمروا أولا بسوقه إلى النجم مغلولا ، وهناك يعاد تكليله بكُل أطول وأعظم ، وعلى هذا لا يبعد أن يكون قد لوحظ في (ثم) إفادة التراخي الزماني : فهو يغل أولا ويقاد إلى النجم فتمر عليه وهو يقاد إليها مدة يظنها لطولها سنين ، ثم إذا ورد النجم تمر عليه مدة طويلة أيضا قبل أن يكبل بالسلسلة فيحسب أن ما هو فيه من العذاب آخر ألوانه ، حتى إذا سلكوه في تلك السلسلة عرف أن هناك أنواعا منه أشد هولاً ، فيشتد حزنه ويعظم كربته .

وبعد فإن ما أتى على ذكره كتاب الله من وصف دار النعيم والمنعمين ، ودار العذاب والمعذبين إنما هو تنزل في الخطاب إلى ما اعتدناه من الأساليب ، وتقريب لحقائق الغيب في مألوف التراكيب ، وإلا فإن إفهامنا ذلك بالكنه والحقيقة متعذر ما دام العالم الآخرى مباينا لعالمنا في سنته ونواميسه وطبيعته التي ركبها الله فيه ، وكما يستحيل على الكاتب — مهما

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾

تفنن في الوصف — أن يفهم غلاما فاقدا إحدى المذوذات الجسدية حقيقة تلك اللذة قبل بلوغه زمنها ، كذلك يستحيل علينا أن نفهم حقيقة نعيم الدار الآخرة وعذابها قبل بلوغنا زمنهما .

ثم إن عجزنا عن تعقل الجنة والنار بكنهيهما وحقيقتيهما لا يستلزم انتفاء وجودهما مادام الوارد بشأنهما غير محال عقلا ، إذ كم من أمر ثابت الوجود في دنيانا هذه ، بل يكون علمنا به بديهيا أحيانا — لا نقدر أن نتعقله بكنهه ، وإنما نتعقله بأثره الصادر عنه والدال عليه ، لا نمثل لك بالكهربائية والأثير والمادة وأجزائها الفردة التي تتركب منها مما لا يزال مجهول الحقيقة في العلم الطبيعي ، وإنما نحيلك على نفسك التي بين جنبيك ؛ فإنك بالطبع تعترف بأنها موجودة ، لكك تعجز وتفهم إذا قلنا لك صفها لنا وصفا يوصلنا إلى كنه أمرها ، وحقيقة سرها ، وكل ما تقدر عليه من التعريف بها ، هو قولك إني أريد وأفعل ، وأهم وأعمل ، وأنسى وأتذكر ، وأفكر وأنصّر ، وكل ذلك لا يكون إلا بقوة موجودة بالفعل في بدني ، تصدر عنها تلك الآثار الموجودة ، إذ لا يصدر موجود عن معدوم ، ولا سيما أن تلك القوة إذا زابت بدني لم تعد تلك الآثار تصدر عنها ، مع أن البدن سالم لم ينقص منه شيء ، تأمل يا أحمق هذا ، ثم اعترف معي بأن للذين مجهولات كما أن للعلم مجهولات ، وأنه ليس من الإنصاف أن نطأطئ رؤوسنا بين يدي الثانية ثم نشمخ بأنوفنا أمام الأولى .

قوله (إنه كان لا يؤمن بالله) الخ استئناف واقع في جواب سؤال مقدر : كأن قائلا يقول : ولم استحق كل هذا العذاب يا رب ؟ قال : (إنه كان لا يؤمن... ولا يحض ...) الخ .

والإيمان بالله أصل في سلامة العقائد ، كما أن العطف على المساكين ومواساتهم بفضل المال أصل في سلامة الأخلاق ، ومن ثم قرن الله بين الأمرين في هذه الآية ، وقال إن السبب في تعذيب ذلك المعذب هو كفره وشحه : خلونفسه من التصديق والإيمان ، وخلو قلبه من الرحمة والحنان ، وهذا كما قرن الكتاب مرارا بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الصلاة من أكبر آيات الإيمان ، كما أن الزكاة من أكبر آيات الرحمة وحب الإحسان .

وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾

ولم يعذب الله هذا المعبذب بتركه إطعام المساكين ، بل بتركه حض الآخرين على إطعامهم ؛ فانظر كيف إن الإسلام لم يكتف من المؤمنين بأن يحبوا المساكين ، ويعطفوا عليهم ، ويحسنوا إليهم فقط ، بل هو يأمرهم بأن يأمرؤ غيرهم أيضا ، ويحضوا المتفاعدين عن ذلك حضاً .

ومن مظاهر الحض وصوره أن يدعو المسلم لإخوانه المؤمنين إليه ، ويكلفهم مساعده فيما يبغيه : من العناية بالفقراء ، وإزاحة عنهم ، وتيسير أسباب المعيشة عليهم ، وتمهيد طرق الحياة الطيبة بين أيديهم ؛ فإن الكتاب إن كان اقتصر من ضروب العناية بالفقراء على ذكر الطعام وحده ، فإنما ذكره كنموذج ومثال ، وإلا فالإسلام يأمر بإيوائهم وإلباسهم ، وقاية لهم من أذى البرد ، ويأمر بتعليمهم وإرشادهم إلى ما به صلاح دينهم ودنياهم من علم وصناعة ، يدلك على هذا ما قاله المفسرون في قوله تعالى : (وأما السائل فلا تنهر) : إن السائل يشمل سائل العلم المحتاج إلى المعرفة كما يشمل سائل الصدقة ، بل خصه بعضهم بطالب العلم وقال : ” أما إنه ليس بالسائل المستجدي ولكن طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره “ .

وإذا دعا المؤمن لإخوانه المؤمنين إلى ما قلنا من التعاون في شأن الفقراء والمساكين على الوجه الذي يكون فيه سداداً من عوز أبدانهم ونفوسهم — كانت دعوته هذه هي الحض الذي أوعده الكتاب على تركه هذا الوعيد الشديد .

ثم إذا دعا وأجابه إخوانه وعملوا بإشارته من التزام العناية بالفقراء آناً قاناً — كانت عنايتهم هذه واجتماعهم عليها هي ما يسميه أهل هذا العصر ”الجمعيات الخيرية“ و”جمعيات البر والإحسان“ و”جمعيات التعاون“ . فإذا قلنا لإخواننا المساكين : إن كتابنا السماوي يرصد لنا الوعيد على تركنا تأليف ”جمعيات زكاة“ يمكننا بواسطتها انتشار إخوتنا الفقراء من مهاوى التعاسات — لم نرد أن القرآن وضع لذلك قانوناً سرد فيه الأعمال مادة مادة ، وإنما أردنا أنه رمز وأشار ، وأمر بالقياس والاعتبار ، وأن نراعى في أعمالنا ومساعدتنا اختلاف الأعصار والأمصار .

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا واللحن يفهمه ذوو الألباب

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنًا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُوَ
إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾

الخطأ = يردده بعد
الخطيئة = يتعبد
الفاصل
مختص
خاص

وإن الناقص الإيمان الذي كان من آيات نقص إيمانه قسوته على المساكين، وإهمال أمرهم، وتركه الحظ على مواساتهم وسد خللتهم — بلدير بمقت الله وغضبه . وأن تسوء والعياذ بالله عاقبته ، فلا يكون له في النشأة الأخرى (حميم) أى قريب أو صديق يهتم بأمره ، أو يدفع عنه ، أو يغيثه مما هو فيه من البلاء والشقاء ، ليكون ذلك جزاء له من مثل عمله : تخلى عن إخوانه الفقراء في دنياه ، فتخلى إخوانه عنه في آخرته ، تصام عن سماع شكوى أولئك الفقراء في هذا اليوم فتصام أخلاؤه عن شكواه يوم القيامة ، منعهم نثارة خزائنه ، وقتات موائده في دنياه ، فخرمه الله شهى الطعام في آخرته ، فلم يكن له (طعام) يومئذ (إلا من غسلين) قال قتاده "هو شر الطعام وأخبثه وأبشعه" ولعله إنما سمي بذلك من الغسل لأن شر الطعام وأقذره هو البقية التى تعلق في صحاف الموائد بعد الفراغ من أكل ما كان فيها ، فقتلت تلك الفضلة ، وتغسل منها الصحاف ، فهذه الفضلات الخبيثة التى تشتم منها النفوس الكريمة ، هى التى يستحق أن يطعمها ذلك الباخل على الفقراء بالطعام ، حتى اضطربهم الجوع إلى ارتكاب الشرور والآثام . وطعامه هذا (لا يأكله إلا الخاطئون) المذنبون قساة القلوب أمثاله . [والخاطئ] متعمد الخطيئة وهى الإثم والذنب بخلاف [المخطئ] فإنه من الخطأ وليس الخطأ بإثم ولا ذنب ، وإنما هو ما عفا الله عنه ، وقد مرت الإشارة إلى الفرق بينهما .

و (طعام) فى قوله (ولا يحض على طعام المسكين) اسم مصدر من قولك أطعمه إطعاما وطعاما ، كما يقال أعطاه إعطاء وعطاء . أما (طعام) فى قوله (ولا طعام إلا من غسلين) فهو نفس ما يؤكل ، وإنما قلنا إن (طعام المسكين) بمعنى إطعام لأن الحظ إنما يكون على الفعل لا على الاسم ، فتقول "أحضك يا هذا على إطعام المسكين" ولا تقول "أحضك على رغبة المسكين" إلا على تقدير مضاف ، والأصل عدم التقدير .

ومن لطيف آداب العرب أنهم كانوا يستبشعون الحدة والنزق وشكاسة الأخلاق إلا فى الحظ على الاستعداد للضيوف وتهيئة الطعام للعفاة والمساكين ، فإن الحدة وشراسة الأخلاق تكون إذ ذاك مجودة ، ومن ذلك قول شاعرهم :

إذا نزل الأضياف كان عزورا على الحى حتى تستقل مراجله

فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾

يقول : إن ذلك السيد يكون وقت نزول الأضياف به غضوبا شرسا سيئ الأخلاق على رجال الحى : يحضهم على تهيئة ما يلزم لهؤلاء الضيفان ومداركة أسباب راحتهم ، وتعجيل الطعام إليهم ، لئلا يكونوا جوعا فيمتنعهم الحياء عن طلبه ، ولا يزال ذلك السيد فى غضبه وحدته حتى تستقل قدوره ، أى تملو ، وتقوم على مواقد النيران ، وهناك يهدأ باله ، ويسكن غضبه .

ومما يروى عن السلف من الرقائق والتأدب بأداب القرآن ، أن أبا الدرداء الصحابي الجليل رضى الله عنه كان يحض امرأته على الاستكثار من مرق الطعام ليوسع به على المساكين ، ويقول لها : "آمنا بالله نخلعنا نصف السلسلة الطويلة التى قال الله إنها معدة للذين لا يؤمنون بالله العظيم ، أفلا نخلع نصفها الآخر بالحض على طعام هؤلاء المساكين ، فنخرج من عداد الذين لا يحضون على طعام المساكين ؟ ؟"

ثم شرع فى تقرير مشركى العرب على تكذيبهم به صلى الله عليه وسلم ، كأنه يقول : أخبرناكم أولا خبر الأمم القديمة التى كذبت بالحاقة ويوم العرض والحساب فأهلكاها وأذقناها وبال أمرها ثم قفينا على ذلك بنجر يوم الحساب نفسه ، ووصف هولاء وما يكون فيه لفريق الأبرار والفجار من النعيم والعذاب المقيم ، ويوشك أن يكون كل ما قلناه غير بالغ مبلغه فى قلوبكم ، ولا مؤثر أثره فى نفوسكم ، عنادا منكم لنبيكم ، ولحاجا فى مقاومته وتكذيبه ، قائلين عنه تارة إنه شاعر ، وطورا إن قوله قول كاهن ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم الخ﴾ .

وقد مر فى (ن . والقلم) بيان الحكمة فى أن الله تعالى يقسم ببعض مخلوقاته ، ونسبته هنا يقول جل وعز : "فلا أقسم" فكيف ذلك ؟ يقول بعضهم : إن المنفى [بلا] ليس القسم وإنما المنفى محذوف مفهوم مما سبق : تقديره : (فلا) معنى لتكذيبكم بالقرآن ، ولا الامر ما تقولونه عن محمد صلى الله عليه وسلم إنه شاعر أو كاهن ، ثم استأنف فقال : (أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) . وعلى هذا يكون أفضل للقارئ أن يقف على (فلا) وقفة خفيفة ليشعر

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٢﴾

السامع بما ذكرنا من المعنى . وذهب المحققون إلى أن (لا) نافية للقسم ، وأنه تعالى يخبرنا بأنه لا يحلف بما ذكر : كأنه يقول : إن القضية المتنازع فيها وهى صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما ادعى من النبوة والوحى — هى من الظهور والثبوت بحيث لا تحتاج إلى الحلف عليها . وهذا الأسلوب مألوف حتى فى مخاطب أهل زماننا ؛ فيقول أحدهم للآخر فى أمر مهم يريد أن يثبت له : لاجابة للحلف أو لالزوم للحلف ، ثم يستأنف فيقول : إن الأمر كيت وكيت .

أما قوله (ماتبصرون وما لا تبصرون) فالأقرب أن يكون المراد به ما ترون ويقع تحت أبصاركم من عالم الشهادة ، وما لا ترون ولا يقع تحت أبصاركم من عالم الغيب ، فهو تحقيق لعالم الغيب ، وتعظيم لشأنه ، وفى القسم بالأميرين معا إشارة إلى أن كل ما خلق الله وما لم يخلق ، مما نرى وما لا نرى ، هو عظيم الخطر جليل الشأن ، حقيق بالتأمل فيه ، وإذا كان المتكلم يدخل فى عموم كلامه كما ذهب إليه بعض الأصوليين ، تكون الذات الأحدية داخلية فى عموم ما لا نبصره من عالم الغيب ، ويكون تعالى قد أقسم لنا بذاته العلية على رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وصدق دعواه .

(إنه) أى القرآن (لقول رسول) أى قول محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعنى أنه قوله أنه قاله بلسانه لكم مبلغا ، بعد أن ألقى فى رُوعه وحيا ، وإلا فإن القرآن كلام الله . وفى إضافة القول إليه صلى الله عليه وسلم بعنوان أنه رسول لا باسمه العلمى وهو محمد — ما يدفع الشبهة المذكورة ، وذلك لأن قول الرسول هو فى الواقع ونفس الأمر قول صادر عن مرسله ، وإنا الرسول مبلغ له .

وقد نفى الكتاب أن يكون القرآن [قول شاعر] أو [قول كاهن] .

و [الشاعر] معروف . أما [الكاهن] فهو الذى يخبر عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، ويدعى معرفة الأسرار ، ومطالعة الغيب ، ورجل مثل هذا — اعتاد أن يطيل الفكر والاستغراق ،

وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾

ويكثر التطلع إلى ما وراء عالم الحس — قد تبرق له بارقة خيال من ذلك العالم، فيقرن بها أمثالها وقيس عليها أشباهها، ثم يخبرها، فيرى أحيانا في أخباره وميض من الحق، ومسحة من الصدق. هؤلاء الكهان وجدوا في بلاد العرب قبل البعثة، ولكن كانت أخلاقهم وأطوارهم وهموم أنفسهم ليست على شيء من الطهارة والزاهة، وحب الخير وممارسة الفضيلة وإحاض العبادة، وتبليغ الخلق وحيا قامت التجربة على نفعه في تحسين حال الجماعات البشرية، وتأثيره في نقلهم من طور الهمجية إلى أعلى أطوار المدنية، وإنما كل ما يصدر عن أحد أولئك الكهان سيجعات ظاهرة الركاسة والتعسف، تتضمن معاني بادية التصنع والتكلف، فما أين بطلان ما كان يقوله المشركون من أنه صلى الله عليه وسلم كاهن، وما أوهن الاحتجاج به.

أما قولهم عنه إنه شاعر فبطلانه أظهر، وبهتانهم فيه أكبر؛ لأن أخلاق الشعراء وأساليبهم في كلامهم، ومراميمهم في حياتهم، تنم عنها أشعارهم وقصائدهم ومعلقاتهم، فلا غرو أن يوبخ الكتاب أولئك الزاعمين هذه المزاعم فيه صلى الله عليه وسلم، ويقول لهم: ﴿قليلًا ما تؤمنون... قليلًا ما تذكرون﴾ أي أتم قوم أصحاب عناد وباطل: ماتت عاطفة الفكر والذكر من قلوبكم، فلا تؤمنون بالله، ولا تحذون في أنفسكم ذكرى تؤدي بكم إلى الاعتبار والاتعاظ. فقلوه (قليلًا) و(قليلًا) لإفادة نفى أصل الإيمان، ونفى أصل التذكر، وكثيرا ما تكون [القلة] في كلام العرب بمعنى العدم المحض. وفي الحديث "إنه كان يقل اللغو" أي لا يلغو صلى الله عليه وسلم أصلا. وشاهد ذلك قولهم "قل رجل يقول ذلك إلا زيدا" أي ما رجل يقوله إلا هو، فلو لم تكن [قل] بمعنى النفي المحض ما صح الاستثناء منها، فإن الاستثناء معيار العموم كما تقرر في علم الأصول.

وإذا لم يكن القرآن قول شاعر ولا قول كاهن، فهو ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي وحى منه تعالى أنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم فيبلغكم إياه بقوله ولسانه. وأشار بقوله (رب العالمين) إلى أن الإله الذي ربي البشر، وأمدتهم بضروب عنايته، وغذاهم بصنوف نعمته — حقيق بأن يتعهدهم بوحيه على لسان رسوله، كي يبلغوا بهم غاية كمالهم، وبحاج سعادتهم.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾

(ولو تقول علينا) التقول تكلف القول ، ويراد به التكذب والافتراء ؛ لأن القول الذي يكذب به قائله يتكلف له ، ويتصنع في إيرادها .

و (الأقاويل) جمع أقوال ، وأقوال جمع قول ، فهي جمع الجمع ، وغلب استعمالها في الأقوال الكاذبة التي لا أصل لها . وجعلها بعضهم جمع [أقولة] وإن كانت [أقولة] لم تستعمل وهذه الصيغة أعني [أقولة] يراد بها صغر مسماها وحقارته غالبا ، مثل أضخوكة وأكذوبة وأسطورة وأعجوبة وأنشودة ، جمعها أضاحيك وأكاذيب وأساطير وأعاجيب وأناشيد ، ومثلها [أقاويل] .

و [اليمين] اليد اليمنى . ويكون الأخذ بيمينه صلى الله عليه وسلم كناية عن التمكن منه ، والقدرة عليه ؛ فإن من يضبط إنسانا من يده اليمنى التي هي آلة بطشه يكون قادرا على منعه من الحركة والقيال . أو المراد باليمين القوة مرادا بها قوة الله وقدرته تعالى ويكون معنى (لأخذنا منه باليمين) لا نتقمتنا منه بقوتنا وقدرتنا . و (الوتين) قال ابن سيده " هو عرق لاصق بالقلب من باطنه أجمع ، يسقى العروق كلها الدم ، ويسقى اللحم ، وهو نهر الجسد " وقال غيره " هو نياط القلب وهو جبل الوريد " إذا قطع مات صاحبه " فعني (لقطعنا منه الوتين) لعاجلناه بالعقوبة ولم ندعه حيا . وخص الوتين بالذكر من بين سائر أعضاء الجسد وعروقه لأن طريقة الإماتة بقطعه أسرع الطرق وأشدّها إجهازا على الحياة .

وقوله (حاجزين) أى مانعين وحامين وحائلين بيننا وبين ما نريد منه . وكان الظاهر أن يقول : فما منكم من أحد أيها الناس عنه حاجزا ومانعا ، لأنه صفة لأحد وهو مفرد . لكن لما كانت (من أحد) نكرة مستغرقة في العموم صارت بمعنى الجمع فوصفت بصفته .

ومعنى الآية أنه تعالى يقول في تبرئته نبيه صلى الله عليه وسلم مما رماه به المشركون ، وفي دحض دعواهم أنه - وحاشاه - كذاب مفتر على الله - : لو تعمد محمد كذبا علينا لكنا قادرين على أن نتمكن منه فضل تمكن ، ولكنا أهل كناه وقضينا عليه من وقته ، وما وجد أحد في البشر يقدر على أن يحول بيننا وبين إنفاذ مشيئتنا فيه .

لا يقال : إنه قام في أزمنة التاريخ المختلفة متنبئون لم يهلكهم الله ، بل بقيت أكاذيبهم ، وانتشرت أضاليلهم — لأننا نقول : إنه قلما ظهر متنبئ كذاب إلا سلب الله عليه من قتله وأحمد أنفاسه ، كما فعل في مسيلمة الكذاب وأضرابه . وإن بقيت لأحدهم دعوة في الأرض فإنما تبقى محصورة في جهة منها وبين أقوام قليلين تعوزهم الأدلة والبراهين على صحة ما أتى به متنبئهم لتكون مقبولة في نفوس ذوى العقول السليمة . أما ” بوزة “ و ” كنفوشبوس “ و ” زرادشت “ الذين انتشرت تعاليمهم في معظم آسيا ، واتبعهم نيف وسبعائة مليون من أهلها ، أى نحو نصف العالم الإنسانى — فقد يكونون أنبياء صادقين ، ولم يرد في الشرع نص صريح ينفي نبوتهم . وإذا كان في أديانهم المنسوبة إليهم اليوم ما هو ظاهر الوضع والبطلان فيكون مما دس عليهم ، واخترعه مخيلات أتباعهم ، ولم تسلم من مثله الأديان السماوية المشهورة .

ويمكن أن يقال : ليس معنى (أخذنا منه باليمين . وقطعنا منه الوتين) تعجيل العقوبة له صلى الله عليه وسلم والقضاء على حياته ، وإنما المراد أنه لو كان كاذبا لكنا عجّلنا له عقوبة أمثاله من المتنبئين الكاذبين ؛ فنميت ذكره ، ونطفئ دعوته ، ونلاشى ما أتى به . ولا ريب أن معاجلته بالعقوبة على هذه الصورة هو قضاء عليه ، وإهلاك له ، لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن كذابا ولا مفتاتاعا لربه ؛ فن أجل ذلك لم يضع ذكره بل رفعه ، ولم يخرج صدره بل شرحه ، ولم يمت دعوته بل أحياها ، ولم يلاش أمتة بل نماها ، حتى كان لها من حظ الانتشار والعزة ما لم يكن لسواها .

إن دعوة رجل واحد يهتف بها في منقطع العمران ، فليبيها ملايين وملايين من البشر ، ويكون من أثرها قيام دين كريم ، ونهوض ملك عظيم ، ونشوء حضارة لم تزل معالمها ناطقة بمجدها إلى اليوم — دعوة هذا شأنها لا يتصور في العقل أن تكون كاذبة مفتراة على الله . ولو كانت كاذبة كما يقولون ما استتب لدعوة سماوية غيرها أن تثبت وجودها ، وتبرهن على صدقها ؛ إذ لم نر لدعوة أخرى سواها من الأثر في تربية الأمم ، ونشر العلم ، والحض على العمل الصالح ، والتزام العدل المطلق — ما رأيناه لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام فهل يتمخض البطل عن نتاج خير من نتاج الحق ؟ ويثمر الكذب من الثمر الطيب ما لا يثمره الصدق ؟؟

أما إذا قيل إنه قد قامت في العصور المتأخرة مدنيات عظيمة في قوتها ، عظيمة في أعمالها ، عظيمة في آثارها ، لم تقم بعنوان إسلامي ، ولا هي مما أسس على الدعوة المحمدية ، وقد قضت هذه المدنيات الحديثة على الجماعات الإسلامية ومدنيتها المتوارثة حتى غشاها من أمرها ما غشى فإنى أقول : لو قام اليوم من تحت الأرض قائم كريم ، ثم طاف معالم المدنيات الإسلامية

وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾

ومساكن الأمم المنسوبة إلى الإسلام — لأنكرها كلها ، اللهم إلا كلمة الشهادة ، ومراسم العبادة ولو طاف هو نفسه المدنيات الحديثة ، ومساكن أهلها — لا اعترف بها كلها ، اللهم إلا ما ظهر بطله ، واستبان فحشه ، ويفكر أهله أنفسهم في الزرع عنه ، والتخلص منه .

ولو هبط هابط من فوق السماء ، ثم طاف مدنات الأمم المنسوبة إليه ، وتأمل في أصول حياتها المادية الجديدة المؤسسة على الحرص وادخار المال والتمتع بلذائذ العيش — لأنكر كل شيء ينسب إليه إلا الاسم ، وما عرف من تعاليمه وشرائعه التي كان أتى بها إلا الرسم .

جعل ختام السورة كنتيجة للكلام السابق ، مرتبطة به أشد ارتباط ، فهو يقول : إذا ثبت أن القرآن وحى من الله ، لم يتقوله محمد صلى الله عليه وسلم على ربه — كان هذا القرآن تذكرة وعظة ينتفع بها المتقون ؛ فضمير (وإنه) يرجع إلى القرآن الذى إن لم يتقدم له ذكر صريح فقد تقدم ما يعينه ، ويومئ إليه ، فإن قوله تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل) لم يرد به إلا القرآن الذى كان يزعم المشركون أنه أقاويل وأساطير ، والله نفى ذلك واحتج على كذبهم ، وصدق القرآن .

وقوله (للمتقين) يريد بهم أولئك الذين صفت نفوسهم عن كدورات الأوهام ، وخلصت من شوائب الجلود والتقليد ، ومالت بفطرتها إلى قبول الحق والإذعان له ، تتق بذلك سخط خالقها وتحذر عقابه . أمثال هؤلاء هم الذين استعدت نفوسهم لقبول القرآن والاستهداء به ، أمّا أولئك المكذبون الجاحدون على ما ورثوه من آبائهم ، فإن الله توعدهم بقوله : ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ ، وليس المراد به إفادة أنه تعالى يعلم بالمكذبين فقط ، بل المراد أنه تعالى محيط بهم ، راصد لهم ، غير تارك عقابهم ، فاستعمال العلم بهذا المعنى كاستعمال المعرفة : يقال "أنا أعرف المحسن منك والمسيء" أى لا يخفى على ذلك منك ، ولا أغفل عن مقابلة كل بما يستحقه ، ومنه قول ابن الفارض "روحي فداك عرفت أم لم تعرف" أى كافيتنى بالحسنى أم لم تكافئنى .

وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥٢﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٣﴾

فهؤلاء المكذوبون الذين يعلمهم الله وهومن ورائهم ، كيف يكون حالهم في مستقبل الأيام : في الدنيا إذا أظهر الله نبيه ، ونصر حبه ، وفي الآخرة إذا أزيح الستار ، وبطلت الأعذار ؟ لا جرم أن تكذيبهم سيكون عليهم حسرة ، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ فضمير (إنه) يرجع إلى التكذيب المفهوم من قوله (المكذبين) ، ومراده (بالكافرين) نفس المكذبين المذكورين قبله ، وكان الظاهر الإضمار أى أن يقول "وإنه حسرة عليهم" ، لكنه أتى بالاسم الظاهر ليتناول به وصفا جديدا لهؤلاء المكذبين وهو كونهم كافرين ، ويحتمل أن يرجع ضمير (وإنه) إلى القرآن ، أى إن القرآن سيكون حسرة على المكذبين : في الدنيا إذا ظهرت تعاليمه ، وانتشر في الخافقين نوره ، أو في الآخرة إذا رأوا نجاة المصدقين به ، المتمسكين بحبله . وعود ضمير (وإنه حسرة) على القرآن أنسب ، وبذلك ينتظم شمله مع ضمير (وإنه لتذكرة) الذى قبله ، وضمير (وإنه لحق اليقين) الذى بعده ، فإنهما للقرآن .

ومعنى ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أن القرآن هو اليقين أى الحق الثابت الذى لا شبهة فيه ولا ريب . والجملة من مقوله تعالى ، يثبت بمضمونها قلب نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا يلين في الدعوة ، ولا يضعف عزمه لتكذيب أولئك المكذبين ، ورميهم له بختلف التهم ومختلف الدعاوى .

ومعنى ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ إذا كان من عاقبة المكذبين ما ستعلمه يا محمد وسيعلمونه هم ، وكان القرآن وحيا من الله يقينا — لم يبق إلا ثباتك في أمرك ، ومضيك في ما نذبت له من تبليغ رسالتك ، واستعن على مهمتك هذه بتسبيح ربك ، والشكر له على أن اختصك بكرامة النبوة ، وعلو المرتبة ، فهو ربك الذى حاطك بعنايته ، والعظيم الذى يصغر كل شيء إذا قيس بعظمته ، وهو تعالى وحده الذى يجب أن تسبحه وتشكره ، وترجوه وتخافه ، ودع عنك أولئك المكذبين جانبا .

و[الاسم] هو ما يعرف به المسمى ويتميز عن نظائره ، واسم الله وأسماءه صفاته التى عرفناه معشر البشر بها ، وإلا فإن المدارك تعجز دون الوصول إلى كنه ذاته [فالتسبيح باسم الرب] الذى أمر الله نبيه به هو عبارة عن تنزيه صفاته تعالى أن تكون مشابهة لصفات المخلوقين .

أو قول : إن المراد [باسم الرب] هو الكلمات الدالة على ذاته كالله ، وصفاته كالرحمن والرحيم ، فإذا أمر الله تعالى بتنزيه هذه الكلمات ، ومجيد شأنها — كان ذلك مستلزما لتنزيه الذات المدلول بها عليها ، أو المراد بتنزيه أسماء الله تنزيها عن أن تطلق أو تستعمل في مسميات أخرى كما يفعل المشركون من تسمية [اللات] فإنها مؤنث [الله] سموها بها لإلهة من آلهتهم ، وسموا لإلهة أخرى [العزى] تأنيث الأعز ، والأعز والعزير من صفاته أو أسمائه تعالى ؛ فعنى قوله (سبح باسم ربك) نزّهه فلا تسم به إلا إياه سبحانه وتقدس .

وفعل [سبح] يتعدى بنفسه فيقال (سبح اسم ربك) ، وبالباء كما في آيتنا هذه ، ومثله "ألقى الكتاب من يده" و"ألقى به من يده" "وأخذ الشيء وأخذ بالشيء" ، قال تعالى : (ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقال أيضا (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) .